كلمة للمسلمين الخائضين في مسألة نظرية التطور

المنهج العلمي الذي يسير به علماء الطبيعة هو منهج طبيعاني محض وطريقته هي: **تفسير العالم وجميع الظواهر التي تحدث فيه ببعضه البعض، لا بشيء خارج عنه، فالمرصود يُفسَّر بمرصود من نفس جنسه، والمحسوس يفسر بمحسوس مثله، والمقاس يفسر بمقاس وقياسات مثله وهلم جرا**

وهذا المنهج يطوي تحته عدة افتراضات تؤخذ مسلمة وهي ليست كذلك بل هي باطلة: **كمناسبة المنهج العلمي لتفسير العالم ككل بجميع ما فيه، وأنه لا شيء في هذا العالم بحيث لا يصلح لأن يُفسَّر بهذا المنهج. وككون هذا العالم ليس مخلوقا لله ولا أي شيء آخر فيه، ولا أي ظاهرة مما تحدث فيه تستند على الله بأي حال من الأحوال**، فالعالم مكتف بنفسه في وجوده وظواهره التي تحدث فيه

فالعجب ليس من نظرية طبيعية تفسر نشأة الحياة أو تنوع المخلوقات على الأرض، بل العجب ممن يتعجبون منها. ما الذي كنت تنتظره إذن؟ ما الغريب في الأمر؟ هل كنت تنتظر أن يخرجوا لك بنتيجة: "**إذن الكائنات مخلوقة من الله**"؟ المنهج الذي وجهوه لدراسة العالم مُطعّم بمقدمات طبيعانية تحدد سلفا الإطار الذي ستخرج به كل النظريات وكل محاولات التفسير، وهو إطار محدود بحدود العالم لا يتعداه، فالنتيجة التي ظننت أنهم خرجوا بها بالنظرية، هي أصلا ليست نتيجة وإنما هي مقدمة مأخوذة سلفا ضمن منهج البحث ولم تشذ النتيجة عنها، بل النتيجة لازمة كل اللزوم عن مقدمات كتلك.

في اللحظة التي يقرر فيها علماء الطبيعة: "**سنتوجه لدراسة نشأة الحياة/العالم/الخلق**" فالنتيجة التي سيخرجون بها معلومة من تلك اللحظة. مجرد توجه العلماء لتلك المنطقة بمنهجهم الطبيعاني = مشكلة، فعند تلك اللحظة، وبغض النظر عن تفاصيل التفسير الذي سيخرجون به، ولكن معلوم من البداية أنه سيقف عند حد مادي طبيعي لن يتجاوزه، وكل خطوة من خطوات التفسير ستكون مادية طبيعية صرفة، أمامهم مجموعة من النقاط المتناثرة، وبمنهجهم في التفسير، فلن يحاولوا تفسير تلك النقاط إلا بإيصالها ببعضها البعض، أيا كان تفاصيل هذا التفسير، وليس بإرجاع تلك النقاط إلى نقطة واحدة خارجة عنهم مثلا، فتلك هي المقدمة التي سيبدأون منها، أن تفسير تلك النقاط ليس بشيء خارج عنها وإنما بها هي لا غير، فلا مفاجأة في أن تخرج نظرية تقول أن تلك النقاط جاءت بعضها من بعض أو كلها تُرد إلى نقطة أولية حدث لها بعض التغيرات العشوائية اللاغائية أدت إلى انتواع التفريعات التي تفرعت عنها وهكذا، فالإطار الطبيعاني للمنهج العلمي هو الذي حدد شكل النتيجة النهائية منذ البداية وإن اختلفت التفاصيل المؤدية لتلك النتيجة المحددة سلفا

لذا طالما بأنه سيتم إطلاق سراح هذا المنهج و "يسيّبوه" على العالم ليتناول كل ما تطاله يده منه، فستجدهم دائما ينتهون عند نقطة تظهر فيها تلك التعبيرات: **"عشوائية"**، **"حدث هكذا بلا علة"**، **"لقد كنا محظوظين للغاية"** الخ والمتزن منهم سيقول لك **"لا نعلم"** والعاقل منهم والذي لن تجده سيقول لك: **"لا نعلم إذا ما كان يمكن تفسير الأمر أصلا بالاعتماد على المنهج العلمي أم لا"**

فأنتم مشكلتكم في الحقيقة لا تبتدئ مع إعلان نتيجة تطبيق هذا المنهج على دراسة نشأة الحياة أو ظهور الكائنات على الأرض، وإنما تبتدئ فور إعلان تطبيق هذا المنهج على دراسة نشأة الحياة وظهور الكائنات، فبدء المشكلة منذ اللحظة التي تم فيها التوجه للقيام بتلك الدراسة لا عند الخروج بنتيجتها، فلِمَ ينصب هجومكم ونقدكم فقط على نتيجة لم تشذ عن الإطار المرسوم لها منذ البداية؟ هل ليس لديكم مشكلة مع المقدمات الفلسفية المُضمنّة في المنهج العلمي وطريقة نظر علماء الطبيعة للعالم؟ هل ليست لديكم مشكلة مع تعميم صلاحية تناول هذا المنهج لكل ظاهرة في العالم؟ فلِمَ إذن تتركون المقدمات والأصول وتركزون نقدكم على النتائج والفروع؟

فرضا أن خرج علينا العلماء غدا وقالوا أن النظرية ساقطة –وهو ما لن يحدث- فماذا أنتم فاعلون؟ هل تتصورون أنه بذلك قد انزاح من على عاتقكم الهم؟ بل ستخرج نظرية أخرى تحاول تفسير الأمر تفسيرا طبيعيا وسنعود لنفس الكرّة معها، لن يتغير شيء طالما أن سهام هذا المنهج مُسلَّطة على بحث وتفسير تلك المسائل، تلك هي المشكلة الأساسية، ولا يُفهم من كلامي هذا أني أقول أنه يجب التوقف عن نقد النظرية، وإنما أقول أنه لا يجب الاقتصار على هذا الأمر وكأنها هي المشكلة الرئيسية، بل المشكلة الرئيسية ومحل النزاع الحقيقي هو ابستمولوجي وميتافيزيقي في الأساس، ورغم هذا لا يتوجه الحديث لتلك المنطقة أبدا، فما يجب النظر وتحرير القول فيه هو: **في المقدمات المضمنة في المنهج العلمي، وفي صلاحية هذا المنهج لتناول العالم بكل ما يحويه من ظواهر بالتفسير.**

فكما قلت سابقا، المنهج العلمي يحتوي على **شروط فوق-منهجية** تحدد سلفا شكل التفسير الذي يمكن قبوله أو استبعاده، قبل حتى أي تحليل ونظر في الظاهرة نفسها، ككون المُفسَّر به لا يجب أن يخرج عن جنس المُفسَّر، فالطبيعي حتى يُقبل فقط النظر في تفسيره يجب أن يكون تفسيره طبيعيا، هنا يأخذ تفسيرك ختم "العلمية" ويُنظر فيه فيُقبل أو يُرفض، وإن لم يكن "علميا" [أي خرج عن الشروط الموضوعة في المنهج] فسيُحرم من نيل شرف وصفه بـ"العلمية" وسيُرفض من البداية، وهو ما يتطلب النظر في مسألة مدى تطابق النماذج والنظريات العلمية مع الواقع كما هو، وكيف يمكن التأكد من ذلك، وهو ما لا يمكن أن يتم على أصول الطبيعانيين والعلمويين.

وهنا يتبين سذاجة وسطحية من يقول كلام مثل: **"العلم أثبت أن الكائنات ليست مخلوقة"** أو أن **"العلم فسر نشأة الكون دون حاجة لافتراض إله"** وما شابه ذلك، إذ أن تلك الدعاوي ليست نتائج للنظريات والنماذج العلمية، وإنما هي مقدمات مأخوذة ضمن المنهج العلمي نفسه، ونقطة انطلاق ينطلق منها العلماء الطبيعيون، بل هاته العبارات وأمثالها تكاد تكون تحصيل حاصل، تكرارات طوطولوجية وترهل لفظي لا فائدة منه، إذ أن قولهم: **العلم فسر** مأخوذٌ في طياته أن التفسير طبيعي **–فالعلم لا يفسر الطبيعي إلا بالطبيعي-** بل لا معنى لوصف التفسير أنه علمي أصلا لو لم يكن طبيعيا، فلو كان خارجا عن حاق الطبيعة لما عُدَّ علميا، فلا يعتد المنهج العلمي بتفسير غير طبيعي، فيصبح القول بأن **العلم فسر وجود العالم دون حاجة لافتراض إله** تكرارا لفظيا وتحصيل حاصل، فنصف الجملة الأول –أي العلم فسر وجود العالم- أو –العلم أثبت أن الكائنات- مفيد لنفس معنى الجملة كاملة بحيث يصبح النصف الثاني لها –دون حاجة لافتراض إله- أو –ليست مخلوقة- ترهلا لفظيا لا يضيف أي معنى جديد، فعدم الحاجة لله وعدم المخلوقية هي مقدمات مُضمنة سلفا في المنهج العلمي أصلا ويُبنى عليها النتائج وليست هي نتائج البحث العلمي.

فكأنهم يقولون لك **التفسيرات العلمية لا يوجد بها تفسيرات خارجة عن الطبيعة**، وهو كقول القائل: **طلاب مدرسة كذا الثانوية بنات لا يوجد بينهم طلبة ذكور**، هكذا تبدو لي عباراتهم البلهاء كـ **العلم فسر كذا دون الحاجة لإله،** فكما أن لا معنى لكونك طالبا بمدرسة بنات إلا أنك أنثى، فكذلك لا معنى لكون س نظرية/تفسير علمي إلا كونها طبيعية صرفة. وعليه، فدس هذا المنهج لمنخاره في كل شيء للخروج بنظريات ونماذج تفسر كل ظاهرة في هذا العالم، بل وتفسر العالم نفسه، هو ببساطة محاولة لتفسير العالم تفسير **طبيعاني** لا تفسير **صحيح** مطابق للواقع كما هو، لذلك كل النظريات والنماذج المفسِّرة التي ستخرج من هكذا منهج ستكون على هذا الحال، وتلك هي المشكلة بالأساس، وليست المشكلة مع آحاد النظريات التي ينتجها هذا المنهج.

يجب على الخائضين في موضوع نظرية التطور أن يعلموا هذا الأمر، وأن يوصلوه بشكل مبسط للعامة، فالمسلم العامي مستخدم الانترنت يجب أن يعرف لِمَ هناك من الأصل تلك الثيمة من التفسيرات، ولم هناك **نظريات تفسر العالم دون حاجة لافتراض وجود الله**، وأن محض وجود أمثال تلك التفسيرات لا يعني حتى ولو إمكان أن يُفسَّر العالم دون وجود الله، فضلا عن وقوع الأمر بالفعل، وأن ما يسمى بـ **العلم** ما هو إلا مجموع نتائج تطبيق منهج بحثي معيَّن على العالم، فإن خالف شيءٌ العلم فلا يعود هذا بالبطلان على ما خالف **العلم**، فإن مخالفة العلم أو مخالفة نظرية علمية لا تعنى أكثر من مخالفة نتيجة من نتائج تطبيق منهج بحثي تم وضعه، والمنهج كما بيّنا لا يخلو من الإشكالات والمصادرات والتساؤلات

فمخالفة العلم ليست تهمة بحد ذاتها، بل مخالفة الحق هي التهمة، وكون المنهج العلمي صحيح ونتائجه من نظريات ونماذج علمية مطابقة للواقع كما هو أو لا هي موضع شك ومحل نظر أصلا، وإثباتها يكون في درجة معرفية سابقة على المنهج نفسه بكل ما يتضمنه من مقدمات